حوليات الجامعة التونسية عدد 41 سنة 1997
(ص ص 159 الى 187)

في مفهوم الغريب عند القدامى(*)

بقلم : شكري السعدي

* مقدمة :

يقف النّاظر في المدوّنة اللّغوية عند القدامى على مؤلّفات كثيرة صنّفت في نطاق ما يعرف بعلم الغريب. ولئن انصرفت عناية فريق من الباحثين المحدثين إلى تحقيق الكتب المتصلة بهذا الفنّ وضبطها بما ييسر الاطّلاع عليها والاستفادة منها فإن ما أنجز في شأنها من دراسات تصدر عن مشرب لغوي محض لم يكن على قدر ضخامة حجمها وغزارة مادّتها. ولعل الأمر يزداد وضوحا بمقايسة ما أنجز من دراسات في هذا الشأن بما أنجز منها في مواضيع لغوية أخرى تناولتها كتب التراث من قبيل مسألة الدخيل مثلا. ومن ثم كان هذا العمل محاولة الغاية منها في المقام الأوّل الإسهام في ملء ما يمكن عدّه فراغا في مجال الدّراسة المعنيّ ببحثنا وذلك بإحلال مادة الغريب في صميم الدراسة اللّغوية وإثارة ما قد يتعلّق بها من قضايا. ولذلك عمدنا ـ بعد ضبط مدوّنة البحث وتصنيفها ـ إلى تفحّص المادّة الواردة في متون كتب الغريب ومقدّماتها معتمدين في ذلك على سؤالين متكاملين : ما هي تجلّيات الغرابة ؟ وما هي أسبابها ؟

(*) استرنا في إنجاز هذا المقال بالدروس التي ألقاها الأستاذ الطيب البكوش على طلبة التبريز في اللّغة والآداب العربيّة سنة 1993/1992.

فأوّل السؤالين يتعلّق بالمستوى الذي تنفذ منه الغرابه إلى الوحدة اللّغوية المعدودة غريبة. أما ثانيهما فمناطه السعي إلى تعليل الغرابة لسانيا بردّها إلى ما يفسّر نشأتها. ومن شأن الإجابة عن هذين السؤالين أن تفضي بنا إلى تبين ما يتعلق بالغريب من ظواهر لغوية ينكشف بها المفهوم الذي أناطه القدامى بهذا المصطلح حتّى يتأتى لنا النّظر في درجة تماسكه وامتحان مدى إجرائيته في وصف الظواهر اللّغوية.

* ضبط المدوّنة :

يقتضينا ضبط المدوّنة التي ستكون مدار بحثنا أن نبادر بتقديم تحديد أوّليّ لمصطلح الغريب نستعين به على استصفاء المصادر التي من شأنها أن تؤدّينا إلى تحقيق الغايات المقرّرة من البحث. وقد التمسنا هذا التعريف فيما وقع بين أيدينا من كتب فوجدناه في مقدمة غريب الحديث لأبي سليمان الخطّابي البُستي (ت 388 هـ) إذ يقرّر أن الغريب يستعمل على وجهين : «أحدهما أن يُراد أنّه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم إلاّ عن بعد ومعاناة فكر، والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدّار ونأى به المحلّ من شواذّ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها»[1].. والتعريف بوجهيه يرسي مفهوم الغرابة على قاعدة الغموض والإبهام التي تشير إلى عسر تفكيك الوحدة اللّغوية الموسومة بالغرابة تفكيكا آنيّا وذلك بالنسبة إلى سامع معلوم. أمّا السيوطي (ت 911 هـ)، وهو من علماء اللّغة المتأخّرين فقد أحلّ مصطلح الغريب في شبكة المصطلحات المقترنة به والدّائرة في فلكه وذلك في النّوع الثالث عَشَرَ المعنون «بمعرفة الحوشيّ والغرائب والشواذّ والنّوادر» إذ قال : «هذه الألفاظ متقاربة وكلّها خلاف الفصيح»[2] ثمّ يورد لكل واحد

---

(1) الخطّابي : «غريب الحديث». تحقيق عبد الكريم ابراهيم العزباوي. دمشق 1982 دار الفكر. ج1 ـ ص 71.

(2) السّيوطي : «المزهر». صيدا ـ بيروت 1987 المكتبة العصرية. ج 1، ص 233.

من هذه الألفاظ تعريفا ينتقل بالعلاقة بينها من مجرّد التقارب إلى الترادف التّامّ فيقول معرّفا الغرائب والشوارد : «والغريب جمع غريبة وهي بمعنى الحوشي والشوارد جمع شاردة وهي أيضا بمعناها»[3] وبالعودة إلى صحاح الجوهري (ت 396 هـ) وهو من المصادر التي اعتمدها السيوطي في هذا النوع، نتبيّن هذا الترادف في تعريف صاحب الصحاح للحوشي إذ قال : «حوشيّ الكلام وحشيه وغريبه»[4] كما نتبيّنه في تعريفه للنّوادر بقوله : «ندر الشيء يندر ندورا سقط وشذّ ومنه النّوادر»[5] ثمّ يستطرد السيوطي في تعريف النوادر قائلا : «وقد ألّف الأقدمون كتبا في النوادر كنوادر أبي زيد (...) وفي الغريب المصنّف لأبي عبيد (ت 224 هـ) باب لنوادر الأسماء وباب لنوادر الأفعال، وألّف الصّغاني (ت 650 هـ) كتابا لطيفا في شوارد اللّغة، ومن عبارات العلماء المستعملة في ذلك النادرة وهي بمعنى الشوارد»[6].

وعلى هذا الأساس من الترادف أقام صاحب مقال «غريب» بدائرة المعارف الإسلاميّة تعريفه فقال : «[الغريب]، مصطلح مشترك بين فقه اللغة وعلم الحديث وهو يعني في فقه اللّغة العبارات النّادرة أو القليلة الاستعمال[*] (ويلزم من ذلك أن تكون هذه العبارات غامضة). وفي نفس

---

(3) المصدر نفسه ج I، ص 234.

(4) الجوهري : «الصحاح» تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار. بيروت دار العلم للملايين ط 3 ـ 1984، ج 3 ، 1003.

(5) المصدر نفسه ج 1 ، ص 825.

(6) السيوطي ، «المزهر» ج 1، ص 234.

(*) عرّف فخرالدّين الرازي (ت 606 هـ) الغريب على أساس ندرة الاستعمال فقال في معرض الاستدلال على مسألة لغوية : «(ـ) والجواب أنّ اللّغة والنّحو على قسمين ، أحدهما المتداول المشهور (ـ) وثانيهما الألفاظ الغريبة والطّريق إلى معرفتها الآحاد» «المحصول في علم أصول الفقه» بيروت لبنان 1988 دار الكتب العلميّة ط1 باب «الكلام في اللّغات» المجلّد الأول ص75.

السياق يستعمل مصطلحا «حوشي» و«وحشي» وكثيرا ما نصادف هذه اللّفظة في عناوين المصنّفات التي تعنى بالعبارات القليلة الاستعمال في القرآن والحديث»[7].

ويترتب على هذا التعريف الإقرار باتساع المدوّنة وامتدادها فهي تشمل كل ما صنّف في غريب القرآن وغريب الحديث وغريب اللّغة عموما كما تشمل ما ألّف في شرح غرائب الرهسائل الفقهية ولا تخرج عن المدونة كتب النّوادر[8] والآراء المتصلة بالغريب في كتب النقد الأدبيّ والموسوعات اللّغويّة والأدبيّة. ولما كان استقصاء المدونّة أمرا عسيرا[9] فإنه

---

(7) E.I (2): II / 1034

(8) بين كتب الغريب وكتب النّوارد من الوشائج ما يحمل على الجمع بينها في هذه الدّراسة. فزيادة على ما مر بنا من الترادف بين الغريب والنّادر ومن احتواء الغريب المصنّف على باب لنوادر الأسماء وباب لنوادر الأفعال فقد أثبت ابن النديم (ت 382 هـ) في الفهرست كتب النّوادر عقيب كتب غريب الحديث بلا فصل. والرّاجح أنّ ابن النّديم اعتبر كتاب النّوادر في اللّغة لأبي زيد الأنصاري من غريب الحديث. فهو لم يذكره ضمن كتب النوادر على شهرته. أما ابن خلّكان (ت 681 هـ) فإنه لا يذكر له كتابا في غريب الحديث. وإنّما ذكر له كتاب النّوادر وكتاب غريب الأسماء. أنظر «الفهرست» لابن النّديم سوسة تونس. دار المعارف جويلية 1994 ط1 ص ص 129 ـ 130. وانظر أيضا «وفيات الأعيان» لابن خلّكان بتحقيق إحسان عبّاس. بيروت لبنان 1969 المجلد الثاني ص 379. ولا يذهبنّ في الخلد أن كتب الحديث مقتصرة على أقوال النبيّ إذ من الممكن أن تكون أقوالا غير منسوبة إلى قائل بعينه. قال الخطّابي متحدثا عن أنواع الحديث التي أثبتها : «(ـ) وابتدأت أوّلا بتفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ ثنيت بأحاديث الصحابة وأردفتها أحاديث التابعين وألحقت بها مقطعات من الحديث لم أجد لها في الرّواية سندا إلاّ أنّها أخذت عن المقانع من أهل العلم والأثبات من أصحاب اللّغة». ـ الخطّابي «غريب الحديث» ص ص 48 ـ 49.

(9) يذكر ابن النديم (ت 382 هـ) أربعة عشر كتابا في غريب القرآن وسبعة وعشرين كتابا في غريب الحديث واثنين وعشرين كتابافي النوادر. أنظر «الفهرست» ص ص 52، 129، 130. أما محقّقا «غرر المقالة في شرح غريب الرسالة (رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه) لابن حمامة المغراوي فقد ذكرا ثمانية كتب في شرح غرائب الرسائل الفقهيّة. انظر المرجع المذكور تحقيق الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان. بيروت لبنان 1986. دار الغرب الإسلامي ط1، ص 60.

لا مناص للباحث من الاعتماد على عيّنات منها تكون أقرب إلى تمثيل المادّة المراد دراستها وأدنى إلى الشّمول ولذلك عوّلنا في استصفاء مصادر غريب الحديث على آراء بعض من ألّف في الغريب من القدامى. فأبو سليمان الخطّابي البُستي يعرض لما صنّف قبله في غريب الحديث فيرى : «أنّ هذه الكتب على كثرة عددها إذا حُصّلت كانت كالكتاب الواحد»[10] ويستثني من ذلك كتابي أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت 224 هـ) وابن قتيبة الدّينَوَري (ت 276 هـ) فيقول عن غريب الحديث : «وكان أوّل من سبق إليه ودلّ من بعده عليه أبو عبيد القاسم بن سلاّم فإنّه قد انتظم بتصنيفه عامّة ما يحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث وصار كتابه إماما لأهل الحديث به يتذاكرون وإليه يتحاكمون، ثمّ انتهج نهجه محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فتتبّع ما أغفله أبو عبيد من ذلك وألف فيه كتابا لم يألُ أن يبلغ به شأو المبرّز السّابق وبقيت بعدهما صُبابة للقول»[11] ثمّ يذكر الخطّابي كتابه قائلا : «ثمّ إنّه لمّا كثر نظري في الحديث (...) ووجدت فيما (...) يرد عليّ منه ألفاظا غريبة لا أصل لها في الكتابين (...) صرفت إلى جمعها عنايتي حتّى اجتمع منها ما أحبّ الله أن يوفّق له واتسق الكتاب فصار كنحو من كتاب أبي عبيد أو كتاب صاحبه»[12] وقد وضّح مجد الدين بن الأثير (ت 606 هـ) قيمة هذه المصنفات بقوله : «فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب الدّائرة في أيدي النّاس والتي يعوّل عليها علماء الأمصار»[13] ثمّ انتهى إلى اعتبار كتابي أحمد بن محمد الهروي (ت 401 هـ) وأبي موسى الأصفهاني (ت 581 هـ) أهمّ ما صنّف في غريب الحديث بعد

---

(10) الخطّابي، «غريب الحديث» ج 1 ص 50.

(11) المصدر نفسه، ج1، ص 48.

(12) المصدر نفسه ج 1، ص 48.

(13) ابن الأثير «النهاية في غريب الحديث والأثر»، المطبعة الخيريّة 1948، ص 7.

الكتب الثلاثة المذكورة. وكان كتاب ابن الأثير «النهاية في غريب الحديث والأثر» جامعا بين هذين الكتابين : «فرأيت أن أجمع ما فيهما من غريب الحديث مجرّدا من غريب القرآن وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها تسهيلا لكلفة الطلب»[14] أما كتب غريب القرآن فنجتزئ منها بما أمكننا الظّفر به ونعني بذلك كتابي أبي بكر السجستاني (ت 329 هـ) والرّاغب الأصفهاني (ت 502 هـ)[15] وتحقيقا لمبدإ التنويع نعتمد على الغريب المصنّف لأبي عبيد القاسم بن سلاّم نموذجا لغريب اللّغة عامّة إذ كان «مدونة معجميّة عربيّة من طراز فريد لأنّها تعتبر أول وثيقة وصلتنا من الغريب المصنّف»[16] كما نعتمد على كتاب «النوادر في اللّغة» لأبي زيد الأنصاري (ت 215 هـ) و«غرر المقالة في شرح غريب الرسالة»[17] لمحمّد بن منصور المغراوي (ق 7) على ألا يحول ذلك دون الاستفادة من مصادر أخرى لا سيّما الموسوعات اللّغوية كلما دعت إلى ذلك الدواعي.

وإذا رمنا تصنيف مدوّنتنا فإننا نتبيّن قابليّتها للانتظام في صنفين رئيسيّين. يشمل أوّلهما كتب غريب القرآن وجانبا من كتب غريب الحديث. وكذلك غريب الرسائل الفقهية. إذ أنّ هذه الكتب تنطلق من مادة منجزة قابلة للحصر والمداخل المشروحة فيها والمخبر عنها تُعزى إلى متكلّمين

---

(14) المصدر نفسه ص.9.

(15) ذكر السيوطي كتاب الرّاغب في النوع السادس والثلاثين من الإتقان وهو في معرفة غريب القرآن فقال متحدثا عن هذا الفنّ : «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصوْن (-) ومن أحسنها المفردات للراغب» - «الإتقان في علوم القرآن». إستانبول - تركيا 1978. دار قهرمان للنشر ط4ج I. ص 149.

(16) من تقديم صدّر به الأستاذ محمد رشاد الحمزاوي تحقيق الأستاذ محمد المختار العبيدي لكتاب الغريب المصنّف. تونس 1989 نشر بيت الحكمة ص 6.

(17) هذا ما أمكننا الظّفر به من الكتب المندرجة ضمن هذا الصنف من شرح غريب الرسائل الفقهية.

بأعيانهم وهذا يفترض ـ مبدئيا ـ[18] أن تكون قائمة الوحدات المشروحة فيها قائمة مغلقة تنتمي الى مجال الإنجاز أي الكلام. أما الصنف الثاني فيشمل كتبا من قبيل الغريب المصنّف والنوادر في اللّغة لأن مادّة هذه الكتب لا تصدر عن متكلّم معيّن ومن ثم يمكن اعتبارها منتمية إلى مجال اللّسان.

ولا يقتضي هذا التمييز اختلافا في منهج التعامل مع مادة الغريب حسب انتمائها إلى أحد الصنفين المذكورين ذلك أنّ الكلام لا يعدو أن يكون تجسيما لانتظام اللسان،[19] بل قصارانا أن نستعين به على فهم بعض أسباب الغرابة إذ نفترض سلفا أن استعمال اللّسان استعمالا فرديا مخصوصا يمكن أن يفسر الغرابة من بعض وجوهها.

* تجلّيات الغرابة :

قد انتهى بنا تفحّص المادّة الواردة في كتب الغريب والتساؤل عن تجلّيات الغرابة في الوحدات المعدودة غريبة إلى تبيّن انتظامها في ثلاثة مستويات رئيسيّة يتعلّق أوّلها بالجانب الدلالي من الوحدة المعجميّة ويتّصل ثانيها بصيغتها الصرفيّة. أما المستوى الثالث من تجليات الغرابة فله تعلّق بالجانب التعبيري. ولا تقع الغرابة المتعلّقة بهذا المستوى الثالث في أفراد الكلام وإنما تحصل بالنّظم والتأليف بين وحداته. وقد رصدنا إلى جانب هذه المستويات حالتين خاصتين تتصلان بأسماء الأعلام والحروف في أوائل سور القرآن.

فالقسم الأوفر من المادّة التي تثبتها كتب الغريب عبارة عن وحدات معجمية انفصمت فيها الرّابطة بين الدّال والمدلول في ذهن من يسمعها أو

---

(18) هذا افتراض مبدئي لأنّنا سنقف لاحقا على اتّساع دائرة التأليف في ما يمكن اعتباره مدونة مغلقة من قبيل «غريب القرآن».

(19) Martinet (André) : Eléments de linguistique générale. Paris 1980. Librairie Armand Colin. p.25.

يستعملها فقد تقع الوحدة الغريبة لمستعملها من الكتب والنّقول فتحصل عنده الصورة السمعيّة دون المتصوّر الذهني المنوط بها : نقل السّيوطي في النوع السادس والثلاثين من «الإتقان» ما يلي (ـ) عن أنس أنّ عمر بن الخطّاب قرأ على المنبر ـ وفاكهة وأبّا ـ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلفُ يا عمر»[20] وقد يستعمل المتكلم دالاّ لا علم له بمدلوله ولا يحصل له العلم به إلاّ عند مقارنة الاستعمال الغريب بالاستعمال العاديّ : «عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها، يقول : أنا ابتدأتها»[21] وفي درجة أخرى يستحضر للدّال مدلول يقرن به على سبيل الحدس والتّخمين. فقد ذكر السيوطي في نفس المضمار : «(ـ) عن ابن عبّاس قال : ما أدري ما الغسلين ولكنّي أظنّه الزّقوم»[22] وقد تظهر ظنّية الدّلالة في سوء الاستدلال عليها. فقد جاء في كتاب النوادر في اللّغة لأبي زيد الأنصاري : «وحدّثني شيخ لنا من البصريين عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي قال : أنشدت الخليل بن أحمد قول السّموأل :

ينفع الطّيب القليل من الرزّ (م) ق ولا ينفع الكثير الخبيثُ.

فقال لي ما الخبيثُ ؟ فقلت أراد الخبيث وهذه لغة اليهود يبدلون من الثاء تاء قال فلم لم تقل الكتير فلم يكن عندي فيه شيء»[23].

---

(20) السيوطي، الإتقان ج 1، ص 149.

(21) المصدر نفسه، ج1، ص 149.

(22) المصدر نفسه، ج1، ص 150.

(23) أبو زيد الأنصاري «النوادر في اللّغة» صححه وعلق عليه سعيد الخوري الشرتوني بيروت لبنان، 1967 دار الكتاب العربي ط 2 مزيدة ومنقحة ص 104.

وقد يكون إثبات دلالة ظنية لمفردة من المفردات منشأ للاختلاف بين المصنّفين في الغريب سواء صرّحوا بهذه الظنّية أو سكتوا عنها. وبذا نفهم استدراك بعض المصنّفين على بعض في حروف أثبتوها. وعلى هذا ألّف ابن قتيبة كتابا في «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث». وهذا الغلط «إنما هو في رأي مضى به [أبو عبيد] على معنى مستتر أو حرف غريب مشكل»[24] ومن أمثلة ما أصلحه ابن قتيبة من «غلط شيخه الهروي ما يلي : «قال أبو عبيد في حديث النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنّ رجلا أتاه وعليه مقطّعات له.

ذكر أبو عبيد أن المقطّعات : الثياب القصار ولذلك قيل لأبيات الرّجز مقطّعات لقصرها. هذا قول أبي عبيد.

قال أبو محمد [قتيبة] : «والذي رأيت عليه أهل اللّغة في المقطّعات من الثياب أنّها المقطوعة سابغة كانت أو قصارا. وكان القوم يلبسون المآزر والأردية والمروط والأكسية. فمن لم يلبس ذلك وقطّع ثيابه فقد لبس المقطعات»[25]. وما يجدر الإشارة إليه في هذا المثال هو أن ابن قتيبة لم ينف الدّلالة التي أثبتها أبو عبيد وإنما وسع نطاقها.

غير أنّه يمكن للغرابة أن تنفذ إلى اللّفظة من المستوى الصّرفي فتكون مادتها المعجمية معروفة ويكون مكمنُ الغرابة في الصّيغة الصّرفية من ذلك ما ذكره ابن الأثير مثلا : «الإبْرِدة بكسر الهمزة والرّاء : علّة معروفة من غلبة البرد والرطوبة»[26] وما يدلُّ على اتصال الغرابة بالوزن الصّرفي اضطرار المصنّفين إلى التذكير بوزن الوحدة التي يثبتونها وبيان

---

(24) ابن قتيبة : «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث» تحقيق عبد الله الجبّوري بيروت لبنان ـ 1983 ـ دار الغرب الإسلامي ط1 ص : 42.

(25) المصدر نفسه ص 49.

(26) ابن الأثير. «النهاية» ص 11.

الأصول والزواند فيها. جاء في «النّهاية» لابن الأثير : «أقحوان : في حديث قُسّ بن ساعدة : بواسق أقحوان؛ الأقحوان نبت معروف تشبّه به الأسنان وهو نبت طيب الرائحة ووزنه أفعلان والهمزة والنّون زائدتان ويجمع على أقاح»[27].

وفي صنف آخر من الوحدات الغريبة لا تتصل الغرابة بمفردات الألفاظ وإنما بما ينشأ عن ائتلافها من معنى لا يكون لها بالانفراد. وندرج في هذا الصّنف الظّواهر المتصلة بنظام اللّغة التعبيري من حكم وأمثال وأقوال سائرة واستعمالات مجازية. وحينئذ يكون مدار عمل المصنّف في الغريب على الخروج باللّفظة المستعملة استعمالا خاصّا من غموض المجاز إلى وضوح الحقيقة. فمن أمثلة الاستعارة ما جاء في غريب القرآن للسجستاني : «أجورهنّ أي مهورهنّ»[28] ومن أمثلة الكناية ما جاء في كتاب النّوادر في اللّغة لأبي زيد الأنصاري : «(...) وقيل لآخر : ما تقول في نساء بني فلان ؟ قال بَرْقِعْ وانظر، يريد حسن أعينهنّ. قال : وقيل لآخر : ما تقول في نساء بني فلان ؟ فقال اقطع رأسا وابتعثْ. يريد أنّهن حسان الأبدان فقط»[29] فالغرابة في هذين المثالين كامنة في السياق الذي استعملت فيه الكلمة وفك هذه الغرابة رهين باتباع السبل المعروفة في الانتقال من المجاز إلى الحقيقة.

غير أن بعض الاستعمالات التعبيرية لا تبدو واضحة بذاتها فتكون مثار اختلاف بين المصنّفين لدقة معناها واستعصائها على الفهم. ومن ثمّ تنشأ ضرورة العودة إلى مرجع الكلام، ولكنّ المرجع نفسه لا يسعف

---

(27) المصدر نفسه ص 45.

(28) السجستاني : «غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب». تصحيح محمد بدر الدّين النعساني. مصر 1906 مطبعة السعادة ط1، ص27.

(29) الأنصاري : «النوادر في اللّغة» ص 170.

المصنّف بدلالة قاطعة. من ذلك مثلا ما استدركه ابن قتيبة على شيخه أبي عبيد في تفسيره لبعض الأقوال السائرة عند العرب إذ قال : «ذكر [أبو عبيد] قول العرب : «المِعْزَى تُبْهِي ولا تُبْنِي»، قال : أراد أنّها تصعد على بيوت الأعراب فتخرقها بوثوبها ولا تبني أي لا تُتخذ من شعرها البيوت. هذا قول أبي عبيد.

قال أبو محمد : قد رأيت بيوت الأعراب في كثير من مواضعهم فرأيت أكثرها من شَعَر. وما أدري ما هذا التفسير وأحسبه أراد أنّها تخرق البيوت بوثبها عليها ولا تعين على البناء[30].

وإذا جوّدنا النّظر في هذه المستويات من تجلي الغرابة نتبيّن أن الغرابة في المستوى الصّرفي والمستوى المعجميّ الدّلالي غرابة جدوليّة[31] تزول بواسطة عملية الاستبدال أما الغرابة في المستوى الثالث فنَسقيه[32] ناشئة عن الربط بين وحدات لا يؤلف بينها الاستعمال العادي.

ولا تخرج الغرابة في مظهريها الجدولي والنّسقي عن أن تكون متجلّية في مستوى من مستويات اللسان نابعة منه[33] وهي تقابل من ثم مظهرا آخر لا يرتبط بالقول في ذاته وإنما يرتبط بمرجع القول فتكون الغرابة بذلك واقعة خارج اللّغة[34].

فَممّا عدّه القدامى من الغريب ما ذكره السجستاني في غريب القرآن : «الحجّ أشهر معلومات : شوّال وذو القعدة وعشر من ذي

---

(30) ابن قتيبة «إصلاح غلط أبي عبيد» ص 144.

(31) Paradigmatique

(32) Syntagmatique

(33) Intralinguistique

(34) Extraliguistique

الحجّة[35] وجاء في بعض المواضع من كتابه أيضا : «أولُو العزم من الرّسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم وعلى جميع الأنبياء السلام»[36] وتقتضي إزالة هذا النّوع من الغرابة المطابقة بين القول ومراجعه وإذاك يخرج المصّفون عن حدود التفسير اللّغوي المحض إلى التفسير القائم على المعطيات الثقافية والتاريخية وعلى هذا يجوز لنا أن ندرج عن صواب كتاب السيوطي «مُفْحِمَاتِ الأقران في مُبْهَمَات القرآن» ضمن كتب الغريب إذ كان مؤلفه قد سار فيه على هذا المنوال. فقد جاء في كتابه : «غير المغضوب عليهم ولا الضّالين : الأول اليهود والثاني النّصارى[37].

وكثيرا ما نصادف في المواد التي تثبتها كتب الغريب أسماء أعلام تحيل على أشخاص أو مواضع من ذلك ما ذكره ابن الأثير في النّهاية : «وأريحا اسم قرية بالغور قريبا من القدس»[38] وقد اجتهد المصنّفون في شحن هذه الأسماء بدلالة وذلك بردّها إلى مادّة اشتقاقية عربيّة حتّى عندما تكون هذه الأسماء بيّنة في صدورها عن لسان أعجميّ. جاء في «غريب القرآن» لأبي بكر السجستانيّ : «إبليس : إفعيل من أبلس أي ينس. ويقال هو اسم أعجمي فلذلك لا ينصرف»[39] وما يبيّن سعي المصنّفين في الغريب إلى معاملة أسماء الأعلام معاملة سائر الأسماء والمواد التي نعثر عليها في معاجم اللّغة تفريق بعضهم بين نطق يفترض أن يكون فصيحا ونطق مولّد شائع فقد جاء في النهاية : «بِنْهَا هو بكسر

---

(35) السجستاني «غريب القرآن» ص : 34.

(36) المصدر نفسه. ص 98.

(37) السيوطي : مفحمات الأقران في مُبْهَمَات القرآن». ضبطه وعلّق عليه مصطفى ديب البُغا. دمشق.

(38) ابن الأثير : «النهاية» ص 35.

(39) السجستاني «غريب القرآن» ص 35.

الباء وسكون النون : قرية من قرى مصربارك النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم في عسلها والنّاس اليوم يفتحون الباء.[40].

ومن الوحدات التي تكتسي صبغة خاصّة في كتب الغريب ما أثبته السجستاني مثلا من الحروف الواردة في مفتتح بعض سور القرآن. وقد علّق كثير من المفسرين دلالة هذه الحروف بالعلم الإلهيّ. أمّا السجستاني فقد عدّها من الغريب وسعى إلى فك ملغزها. فقد جاء في كتابه : «آ لم وسائر حروف الهجاء في أوائل السوركان بعض المفسّرين يجعلها أسماء للسّور (...) وبعضهم جعلها أقساما أقسم اللّه تعالى بها (...) وبعضهم يجعلها حروفا مأخوذة من صفاته عزّ وجل»[41].

* أسباب الغرابة :

وإذا طلبنا أسباب الغرابة تبيّنا أنّه يمكن إجمالها في ثلاثة محاور يتّصل أولها بتعدّد الألسنة وما ينشأ بينها من تداخل ويتعلق ثانيها بما يتفرّع إليه الإنجاز اللّغوي من مستويات، أما ثالث هذه المحاور فمداره على التطور الزمني وما ينتج عن ذلك من اختلاف الحالة اللّغوية زمن التصنيف عن الحالة اللّغوية زمن استعمال الوحدة المعدودة غريبة. ويمكن أن تنجم الغرابة عن صنف واحد من هذه الأسباب كما يمكن أن تكون نتيجة تضافرها.

فالنّاظر في كتب الغريب لا يعدم إشارات تتعلق بتعدّد الألسنة سيقت في معرض تبرير التصنيف في هذا الفنّ. فقد جاء في «النهاية» لابن الأثير : «(...) فُتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم من الرّوم والفرس والحبش والنّبط وغيرهم من أنواع الأمم (...) فاختلطت الفرق

(40) ابن الأثير «النهاية» ص 115.

(41) السجستاني : «غريب القرآن» ص 3.

وامتزجت الألسن وتداخلت اللّغات[42] .وقد عقد أبو عبيد في الغريب المصنّف بابا قصيرا بعنوان ما دخل من غير لغات العرب في العربية عالج فيه بعض الألفاظ المعرّبة. كما يوجد فيما عدا هذا الباب عدّة ألفاظ معرّبة أخرى منتشرة في ثنايا الغريب المصنّف. وينصّ أبو عبيد في الغالب على جنسيّة الكلمة المعربة. والنصيب الأوفر من الكلمات التي ذكرها أبو عبيد فارسي وبعضها رومي أو نبطي أو سرياني،[43].

فقد كان المصنّفون يدركون أنّ بعض ما أثبتوه من الوحدات مأتاه نظام لغوي مختلف عن نظام العربيّة غير أن حدّة إدراكهم تفاوتت حسب المصنّفين وحسب نوع المادّة المعالجة واللّسان الذي صدرت عنه. ولذلك كان وعيهم للغريب الدّخيل على مراتب ثلاث

فالمرتبة الأولى تشمل الوحدات الغريبة المقطوع بأعجميّتها فلا يتردّد المصنفون في نسبتها إلى اللّسان المصدر وإذاك يردفون المادّة الغريبة بما يشير إلى سبب غرابتها. جاء في «غريب القرآن» استبرق : هو ثخين الدّيباج وهو فارسي معرّب»[44].

وتضمّ المرتبة الثانية الوحدات الغريبة التي تردّد المصنّفون بين نسبتها إلى الأعجمية ونسبتها إلى العربيّة. جاء في «النّهاية» بابوس : (...) قيل هي اسم للرّضيع من أي نوع كان واختلف في عربيّته[45]. وإن كنّا لا نعدم أحيانا سعيا إلى ترجيح أصل بعض الوحدات الغريبة. قال ابن الأثير : «بالام (...) تمحّلوا لها شرحا غير مرضيّ ولعل اللّفظة عبرانيّة»[46].

---

(42) ابن الأثير : «النهاية» ص 3.

(43) من مقدمة صدّر بها رمضان عبد التوّاب تحقيقة «للغريب المصنف». القاهرة 1989 مكتبة الثقافة الدّينيّة ج 1، ص 149.

(44) السجستاني «غريب القرآن» ص : 40.

(45) ابن الأثير : «النهاية» ص ص 68 ـ 69.

(46) المصدر نفسه، ص 69.

أما المرتبة الثالثة فمدارها على الوحدات الدخيلة التي لا يعترف بأصلها الأعجميّ فيلتمس لها أصل عربي يصلونها به اشتقاقيّا. وإذاك تطمس بعض القرائن التي من شأنها أن تعين على تبين مصدر الغرابة. غير أن صيغة الوحدة وتعدد بدائلها الصّرفيّة وخلو العربية من المادة المعجمية التي تدرج ضمنها الوحدة الدّخيلة قد تكون معينا للدّارس على تبيّن انتمائها إلى نظام دخيل. جاء في النهاية : «النجوج»: هو العود الذي يتبخر به؛ يقال النجوج ويلنجوج والنج، والألف والنون زائدتان كأنّه يلجّ في تضوّع رائحته وانتشارها»[47] ويدلّ سعي بعض المصنفين إلى وصل الوحدة الدّخيلة بمادّة اشتقاقيّة عربيّة على أن سبب الغرابة يرجع إلى كون اللّفظة وافدة من نظام لغوي مغاير لنظام العربية ويكون عملهم حينئذ من باب ردّ المجهول إلى المعلوم. وقد وجدوا لذلك مسوغات منها الاتفاق العرضيّ بين المادة الدخيلة والمادّة الأصيلة في بعض مكوناتهما الصّوتية. جاء في غريب القرآن للسجستاني : «إنجيل : إفعيل من النّجل وهو الأصل (...) والإنجيل أصل لعلوم وحكم كثيرة ويقال هو من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته والإنجيل مستخرج به علوم وحكم كثيرة»[48]. والثابت في أمر هذه اللّفظة أنّها يونانية الأصل ومعناها البشارة. ومن هذه المسوّغات الاتفاق المبرّر بالعلاقة التكوينيّة بين لسانين من قبيل تلك التي تجمع اللّسان العربي باللّسان العبرانيّ جاء في «النهاية» : آمين : اللّهم استجب لي، وقيل معناه كذلك : فليكن يعني الدعاء (أمّن يؤمّن تأمينا)[49].

---

(47) المصدر نفسه، ص 49.

(48) السجستاني «غريب القرآن» ص 38.

(49) ابن الأثير : «النّهاية» : ص 55.

وقد يكون سبب الغرابة في الوحدة صدورها عن مستوى من مستويات اللّسان المستعملة كأن تكون منتمية إلى استعمال لهجي جغرافي معلوم فإذا ما تجاوزت الوحدة تلك الحدود المستعملة فيها صارت غريبة وإن لم تكن كذلك عند أهلها ولذلك كان أحد وجهي الغريب عند الخطابي ،أن يراد به كلام من بعدت به الدّار ونأى به المحلّ من شواذّ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها وإنّما هي كلام القوم وبيانهم. وعلى هذا ما جاء عن بعضهم وقال له قائل أسألك عن حرف من الغريب فقال : هو كلام القوم إنّما الغريب أنت وأمثالك من الدّخلاء فيه،[50] فالغريب هو ما لا ينتمي إلى الاستعمال المشترك[51] الذي يفترض أن تمثله لهجة قريش ويكون عبارة عن بديل لهجي. جاء في غريب الحديث للخطّابي : ،وقد يتكلم صلّى اللّه عليه وسلم في بعض النّوازل وبحضرته أخلاط من النّاس قبائلهم شتّى ولغاتهم مختلفة ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية وليس كلّهم يتيسّر لضبط اللّفظ وحصره أو يتعمّد لحفظه ووعيه وإنّما يَستدرك المراد بالفحوى ويتعلق منه بالمعنى ثمّ يؤدّيه بلغته ويعبّر عنه بلسان قبيلته فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد،[52].

وقد جاءت كتب الغريب حافلة بالإشارة إلى التنوّع اللّهجي : ،فمن لهجات القبائل العربية يوجد في الغريب المصنّف في حوالي ستين موضعا منه عدّة كلمات (...) ويدور الحديث في معظم هذه الكلمات حول اختلاف القبائل في نطق الكلمة أو معناها وفي بعض الأحيان تذكر الكلمة على أنّها خاصّة بقبيلة ما دون غيرها (...) ومن النّادر أن تذكر

---

(50) الخطّابي : ،غريب الحديث، ج1 ، ص 71.

(51) Koiné

(52) الخطّابي : ،غريب الحديث، ج 1، ص ص 68 ـ 69.

الكلمة على أنّها لغة دون أن تذكر معها القبيلة صاحبة اللّغة مثل الدلا جمع دلاة لغة في الدّلو.[53].

ويمكّن تفحّص متون كتب الغريب من مزيد تدقيق مصدر الغرابة فقد تنسب الوحدة إلى مجموعة لغوية تكون عادة القبيلة. جاء في «الغريب المصنّف» : الألفت في كلام قيس الأحمق، والألفت في كلام تميم الأعسر.[54] وقد تنسب الوحدة الغريبة إلى رقعة جغرافية. جاء في «غريب الحديث» لأبي عبيد «النُّخّة برفع النّون (...) البقر العوامل. قال الكسائي هذا كلام تلك الناحية كأنّه يعني أهل الحجاز وما وراءها إلى اليمن.[55] وقد تنسب الوحدة الغريبة إلى كلام أهل البادية فتكون غريبة في ذهن من يفترض أنّه من أهل الحواضر. جاء في «غريب الحديث» للخطابي : «أخبرني الحسن بن خلاّد أخبرنا ابن دريد قال : قال أبو زيد : قلت لأعرابيّ : ما المُحْبَنْطِئُ ؟ قال المُتَكائِئ. قلت ما المُتَكائِئ ؟ قال المُتَآزِفُ. قلت مالمتآزف ؟ قال اذهب أنت أحمق.[56].

وقد تتعلق أسباب الغرابة بما يتفرّع إليه الكلام المنجز من تفريعات اجتماعية فتتبع بما يتصل بمجال معلوم من مجالات النشاط البشري. فقد أورد القاسم بن سلاّم الهروي في «غريب الحديث» ما يلي : «وقال أبو عبيد في حديثه عليه السلام : إنّ رجلا أتاه فقال يا رسول اللّه إنّا نركب أرماثا لنا في البحر فتحضر الصلاة وليس معنا ماء إلاّ لشفاهنا.

---

(53) رمضان عبد التواب، من مقدمة تحقيقه للغريب المصنّف ج 1، ص 147.

(54) أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي ، «الغريب المصنّف» تحقيق رمضان عبد التواب ج 1، ص 148.

(55) أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي ، «غريب الحديث» حيدر آباد الدكن ـ الهند 1964 ط1، ج 1، ص ص 7 ـ 8.

(56) الخطابي، غريب الحديث، ج 1، ص 71.

أفنتوضّأ بماء البحر ؟ فقال هو الطّهور ماؤه والحلّ ميتتهُ. قال الأصمعي : الأرماث خشب يضمّ بعضها إلى بعض ويشد ثم يركب يقال لواحدها رَمَثٌ وجمعه أرماثٌ»[57]. فغرابة اللّفظة في هذا المثال متصلة بنشاط لا يزاوله كل مستعملي اللّسان بل إن فئة معلومة من المجتمع تتجرّد لممارسته فتكون الألفاظ المتعلقة به مفهومة عند من كان داخلا فيها غريبة في نظر من كان خارجا عنها.

وتكمن غرابة عدد غير يسير من الوحدات في كونها ألفاظا عُرْفية خاصة[58] .وهي الاصطلاحات التي لكل طائفة من أهل العلم»[59]. ونعثر على هذا النوع من الوحدات في شرح غريب الرسالة لابن حمامة المغراوي. .فقد أدت العناية بلغة الفقهاء وتعابيرهم إلى ظهور صنف من كتب الغريب يتركز فيه الاهتمام على شرح الغريب الفقهي تيسيرا لفهمه وبيانا للمعنى اللّغوي»[60] ومن ذلك ما جاء على لسان ابن حمامة وهو يشرح قول ابن أبي زيد القيرواني : .ثمّ يخرج يوم التروية إلى منًى». قال ابن حمامة : .قوله يوم التروية، قال الخليل : التروية يوم قبل يوم عرفة لأنّ النّاس يتروّون من مكّة يوم التروية يتزودون قربا من الماء»[61].

ومن مستويات الاستعمال التي يمكن أن تكون مصدرا للغرابة مستوى الكلام الشخصي[62] الذي يعني .مجموعة ملفوظات ينتجها

---

(57) أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي : .غريب الحديث، بيروت ـ لبنان. 1976. دار الكتاب العربي. ج 1 ص 43.

(58) Jargon

(59) فخر الدين الرّازي : .المحصول». المجلّد الأوّل، ص 81.

(60) الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان. من مقدمة تحقيقهما لكتاب .غرر المقالة، ص 60.

(61) ابن حمامة : .غرر المقالة، ص 177.

(62) Idiolecte

شخص واحدٌ ولا سيما ما تقوم عليه تلك الملفوظات من ثوابت لغويّة يُنظر إليها باعتبارها (ـ) أنظمة خاصّة.[63]. ولقد كان محل النّص القرآني من الإعجاز وحظّه من البلاغة كفيلين بجعله نصّا مخصوصا له من الأساليب في استعمال اللغة ما ليس لغيره. وبذلك يمكن أن نفهم وجها من أوجه ما مرّ بنا من قضيّة الحروف في أوائل السّور.

ولا تخلو كتب الغريب من إشارة إلى اختلاف الأزمنة وما يعنيه ذلك عندنا من تطوّر اللّسان تطوّرا يختلف به نظامه من آنية إلى آنيّة أخرى. وقد ورد هذا أيضا في سياق تبرير التصنيف في هذا الفن جاء في «غريب الحديث» للخطّابيّ قوله : «ثمّ إنّ الحديث لمّا ذهب أعلامه بانقراض القرون الثلاثة واستأخر به الزّمان ؛ فتناقلته أيدي العجم وكثرت الرّواة وقل منهم الرّعاة وفشا اللّحن ومرنت عليه الألسن اللّكن، رأى أولو البصائر والعقول والذّابّون عن حريم الرّسول أنّ من الوثيقة في أمر الدين والنّصيحة لجماعة المسلمين أن يعنوا بجمع الغريب من ألفاظه وكشف المغدف من قناعه وتفسير المشكل من معانيه»[64].

ومعلوم أنّ اللّسان يتغيّر في كلّ آن وحين فتظهر فيه «صوائم جديدة وكلمات مولّدة وأبنية مستحدثة بينما يقل تواتر بعض الوحدات القديمة والعبارات العتيقة فتذهب طيّ النّسيان. وإنّ هذا ليحدث دون أن يشعر المتكلّمون أن اللّسان الذين يتكلّمون به والذي يتكلّم به النّاس حولهم لا ينفك يفقد هويّته»[65]. ومن ثمّ فإنّ تطوّر اللّسان يقع وفق مظهرين متكاملين : مظهر الإبداع ومظهر الإبعاد. فالإبداع يمثل الجانب الموجب من التطوّر إذ به تتسع دائرة اللّسان وبمقتضاه يستوعب نظامه وحدات

---

(63) Dubois (Jean) et autres : Dictionnaire de linguistique. Paris 1987. Larousse, p 249.

(64) الخطّابي. «غريب الحديث». ج 1 ص 47.

(65) Martinet (André) : Eléments. p 173.

جديدة. ويتيسر هذا الضرب من التطوّر بوسائل عديدة منها الاقتراض والمجاز والاشتقاق والنّحت. وبضدّ ذلك يمثل الابعاد الجانب السالب من التطوّر لأنّه يكون بالضيق والتقلص المفضي إلى الاندثار. وبموجب آليّة الإقصاء هذه يتخلّص اللّسان من الوحدات التي لم تعد الحاجة تدعو إلى استعمالها ذلك أن «تطوّر لسان من الألسنة إيمكن أن يكون» رهينا بتطور حاجات التواصل عند المجموعة التي تستعمله. ولا شك أن تطوّر هذه الحاجات على صلة وثيقة بتطور المجموعة الفكري والاجتماعي والاقتصادي»[66].

ويكون خروج الوحدات من التداول على نحو تدريجي فينحصر استعمالها أول الأمر في مجموعة معلومة أو جيل معيّن ويقل استعمالها ثمّ يندر إلى أن يندثر بتفكك تلك المجموعة أو انقراض ذلك الجيل. وتلك هي «الألفاظ اللّغوية والكلمات الغريبة الحوشية التي لا يعرفها إلاّ من عُني بها وحافظ عليها واستخرجها من مظانّها»[67]. وينتج عن هذا اختلاف مستعملي اللّسان في استعمال بعض وحداته إذ أنّه «توجد أنظمة لغويّة كثيرة في وقت واحد لدى جماعة لغوية معينّة وذلك حسب المجموعات الاجتماعيّة والأجيال. وتوجد على نحو خاصّ صيغ لا يستعملها إلاّ المسنّون من المتكلّمين»[68] ومن ثمّ فهي صيغ تنتمي إلى «نظام منقرض أو في طريقه إلى الانقراض»[69].

وقد أثبتت كتب الغريب ضربا من الوحدات تقادم عهدها وآل استعمالها إلى الندرة وهي في الغالب وحدات على صلة وثيقة بما تختص

---

(66) المرجع السابق : ص 173.

(67) ابن الأثير «النهاية» ص 3.

(68) Dubois (Jean) et autres. Dictionnaire de linguistique. 46; «Archaïsme»;

(69) المرجع السّابق. ص 46، مادّة «Archaïsme»

به الحياة الجاهليّة من نشاط وعادات وطقوس اندثرت بمجيء الإسلام. فلا غرو أن تبدو هذه الوحدات غريبة لمن كان يعني بجمعها في القرن الثاني وهو التاريخ المفترض لبداية التأليف في الغريب[70]. وقد كان أهل القرن الأول من الصّحابة والتابعين يجدون في القرآن والحديث ألفاظا يستغربونها وتتردد أصداء ذلك في ما أورده السيوطي في الإتقان من مسائل نافع بن الأزرق (ت 65 هـ) وقد زادت على المائتي مسألة استفسر فيها زعيمُ الأزارقة ابن عباس عن «أشياء من كتاب الله» وطلب منه أن يأتيه «بمصادقة من كلام العرب». وقد جرت المسائل كلّها على النحو التالي : «قال [نافع بن الأزرق] : أخبرني عن قوله تعالى : ـ برب الفلق ـ قال [ابن عباس] : الصبح إذا انفلق من ظلمة اللّيل. قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم، أما سمعت قول زهير بن أبي سُلْمى : [البسيط] :

«الفارج الهم مسدولا عساكره كما يفرج غمّ الظّلمة الفلق»[71]

وفي جميع المسائل المذكورة يفسّر ابن عبّاس الوحدة الغريبة ويحتج لصحّة تفسيرها بما ورد في أشعار أكثرها جاهلي أي أنّه ينتمي إلى حالة لغوية قديمة.

ومن الوحدات التي أثبتتها كتب الغريب ضرب له تعلق بما كان متفشّيا في الجاهليّة من عادات أبطلها الإسلام. جاء في «النّهاية» : «والاستبضاع : نوع من نكاح الجاهليّة (...) وذلك أن تطلب المرأة جماع الرّجل لتنال منه الولد فقط. كان الرّجل منهم يقول لأمته أو امرأته.

---

(70) جاء في دائرة المعارف الإسلامية : «وكثيرا ما نصادف هذه اللفظة [لفظة غريب] في عناوين بعض المصنّفات لاسيما تلك التي تعنى بالعبارات القليلة الاستعمال في القرآن والحديث ويبدو أنّه وجدت منذ القرن 2 هـ / VIII م كتب عناوينها غريب القرآن وغريب الحديث». (ص 1034).

(71) السيوطي : «الإتقان» ج 1، ص 164.

أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها فلا يمسّها حتّى يتبيّن حملها من ذلك الرّجل. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد»[72] وقد تتضح هذه القطيعة أكثر فيما يتعلق بالطّقوس والشعائر الدينيّة. جاء في «غريب الحديث» للقاسم الهروي، : «وقال أبو عبيد في حديثه عليه السلام أنّه نهى عن حُلْوان الكاهن. قال الأصمعي الحلوان ما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته»[73].

وليس أدلّ على دور العامل الزمنيّ في جعل الوحدة غريبة من اتساع دائرة التأليف في هذا الفنّ رغم أنّ المدونة التي يشتغل عليها المصنّفون في غريب القرآن وجانب من غريب الحديث مدوّنة من منجزة مغلقة. فقد جاء في النهاية : «قيل إنّ أول من جمع في هذا الفنّ شيئا وألّف أبو عبيدةَ مَعْمَرُ بن المثنّى التّيمي إت 209 هـ. فجمع من ألفاظ الحديث والأثر كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات (...) ثمّ جمع أبو الحسن النّضر بن شميل المازني إت 203 هـ بعده كتابا في غريب الحديث أكبر من كتاب أبي عبيدة وشرح فيه وبسط على صغر حجمه ولطفه. ثمّ جمع عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي إت 216 هـ وكان في عصر أبي عبيدة وتأخر عنه كتابا أحسن فيه الصّنع وأجاد ونيّف على كتابه وزاد. وكذلك محمّد المستنير المعروف بِقُطْرُب إت 206 هـ وغيره من أئمة اللّغة والفقه جمعوا أحاديث تكلّموا على لغتها ومعناها في أوراق ذوات عدد (...) واستمرّت الحال إلى زمن عبيد القاسم بن سلام وذلك بعد المائتين (...) وظنّ رحمه الله على كثرة تعبه وطول نصبه أنّه قد أتى على معظم غريب الحديث وأكثر الآثار وما علم أنّ الشوط بطين والمنهل معين»[74].

---

(72) ابن الأثير «النهاية» ص 98.

(73) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. «غريب الحديث» دار الكتاب العربي، ج 1، ص 54.

(74) ابن الأثير ، «النهاية» ص ، 65.

وإذا تتبعنا مسار التصنيف في الغريب وقفنا على التعارض الحاصل بين رغبة المصنّفين في أن يقولوا في القضيّة قولا فصلا وبين شعور من يأتي بعدهم بالحاجة إلى توسيع دائرة التأليف. فقد جاء في «غريب الحديث» لابن قتيبة : «وقد كنت زمانا أرى أنّ كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث وأنّ النّاظر فيه مستغن به. ثمّ تعقبت ذلك بالنّظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما ترك نحوا ممّا ذكر أو أكثر منه. فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ممّا فسر (...) وأرجو أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال»[75] وقد أبان الخطّابي عن شعوره بالحرج في مقدّمة كتابه فقال بعد أن ذكر كتابي أبي عبيد وابن قتيبة : «وبقيت بعدهما صُبابة للقول فيها مُتَبَرَّضٌ توليت جمعها وتفسيرها مسترسلا بحسن هدايتهما وفضل إرشادهما بعد أن مضى عليّ زمان وأنا أحسب أنّه لم يبق في هذا الباب لأحدٍ مُتَكَلَّم»[76].

* نتائج :

لقد أفضى بنا التساؤل عن تجلّيات الغريب وأسباب الغرابة إلى الوقوف على اتساع المفهوم وشموله ظواهر مختلفة ومتباعدة. فالغرابة ثاوية في اللّسان تارة كامنة خارجه تارة أخرى وهي من ثمّ مطلب للشرح اللّغويّ ومتعلّق من متعلّقات التأويل : أي أنّها تجمع بين ما تتطلّبه الرسالة اللّغوية من عملية تفكيك آني عفويّ يقع في الذهن على نحو

---

(75) ابن قتيبة : «غريب الحديث». تحقيق الأستاذ رضا السويسي تونس 1979 الدّار التونسية للنشر. ج 1 ص ص 107 ، 109 ومعلوم أنّ ابن قتيبة ألف غريب الحديث على مرحلتين. إذ قال : «(...) ثمّ عرضت لي بعد ذلك أحاديث كثيرة. فعملت بها كتابا ثانيا يدعى «كتاب الزوائد في غريب الحديث». ثمّ تدبرت الكتابين فرأيت الأصوب في الرأي ان اجمعهما». المصدر المذكور ج 1 ص 108.

(76) الخطّابي : «غريب الحديث». ج 1، ص 48.

آلي وبين ما يقتضيه النظر في النّصوص من تأويل وهو عملية قصديّة غايتها الظّفر بدلالة «أعمق» من الدّلالة «السطحيّة» التي يؤدّي إليها مجرّد التفكيك[77].

وفي اللّسان نفسه تتصل الغرابة بأكثر من مستوى واحد وإن كانت تقع أكثر ما تقع في المستويين المعجمي والتعبيري وذلك ما يجعل كتب الغريب قريبة من المعاجم الخاصّة التي تعنى ببعض مفردات اللّسان دون بعض ولكنها لا تخلو في الآن نفسه من مشاغل عالم البلاغة. وذلك ما يسوّغ وسمها بالموسوعات.

وليس من قبيل الصّدفة أن تجمع هذه الكتب بين وحدات تنتمي إلى النظامين المعجميّ والتعبيري. إذ من المعلوم أنّ هذين النظامين أهش أنظمة اللّسان وأقلّها قابلية للانتظام «فقائمة اللّفاظم في لسان من الألسنة قائمة مفتوحة في الحقيقة (...) لأن حاجات جديدة تظهر في كل حين عند كل الجماعات ولأن هذه الحاجات تولّد تسميات جديدة»[78] ومن ثمّ كان المعجم من أكثر مؤشرات التطوّر في اللّسان. والأمر أجلى في النّظام التعبيري الذي يعدّ أكثر جوانب اللسان تغيّرا وأشد مستوياته حساسيّة وتأثرا بما يطرأ على التجربة البشرية من تحول وتبدّل. ففي كل يوم تظهر توليفات تعبيريّة وصور وقوالب تتفاوت في قدرتها على الاندراج في الاستعمال والاستمرار صلب هذا المستوى من أنظمة اللّسان.

وسواء تعلقت الغرابة بالنظام المعجمي أو بالنظام التعبيري وسواء كانت كامنة في اللّسان أو واقعة خارجه فإنّ مفهومها الجامع لأطرافها يدور على غموض الدلالة الذي ينشأ أكثر ما ينشأ عن ندرة الاستعمال.

---

(77) Décodage

(78) Martinet (André) : éléments p.19.

ويكشف ذلك عمّا كان يسكن القدامى من هاجس المعنى والرغبة في محاصرة الدلالة في حيّزها المعجمي الضيق وفي مستوى الجملة والملفوظ عموما.

ولعلّ هذه النزعة إلى إضفاء المعنى على جميع ما يرد في الملفوظ من وحدات تتجلى في ما مرّ بنا من إدراجهم أسماء الأعلام ضمن الغريب والواقع أن «أسماء الأعلام تحيل من النّاحية الدّلالية على أشياء تقع خارج اللّسان وتكون هذه الأشياء خاصّة وفريدة ومميّزة بتسميتها من الأشياء التي هي من النوع نفسه فليس لاسم العلم مدلول غير الاسم (التسمية) ذاته»[79].

كما يتجلّى حرص القدامى على استقصاء المعنى في طريقة شرحهم للوحدات الغريبة. فلا يتردّد الرّاغب الأصفهاني (ت 502 هـ) وهو يحقّق غرائب الألفاظ القرآنية المفردة، في الإشارة إلى «المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب»[80] من ذلك ما جاء مثلا في مادّة «رود» : «(...) والإرادة في الأصل قوّة مركّبة من شهوة وحاجة وأمل وجُعل اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل (...) والإرادة قد تكون بحسب القوّة التسخيريّة والجسية كما تكون بحسب القوّة الاختيارية»[81].

ومن دلائل اتّساع مفهوم الغريب جمعه بين ظواهر زمانية تنتمي إلى حالة لغوية قديمة وتفصح عن مظهر من مظاهر التطور اللّغوي

---

(79) Dubois (Jean) et autres : Doctionnaire de linguistique, p.397.

(80) الرّاغب الأصفهاني، «المفردات في غريب القرآن»، تحقيق محمد أحمد خلف الله. القاهرة د.ت مكتبة الأنجلو مصرية، ص 3.

(81) المصدر نفسه ص 301.

وظواهر أخرى هي من مشمولات التحليل الآني تتعلّق بمستويات مختلفة يتفرّع إليها الإنجاز اللّغوي في زمن معلوم.

ويترتب على ذلك القول بأن القدامى اعتبروا الغريب معطى أوليا بديهيّا واضحا بذاته فلم يحتاجوا إلى تعريفه على نحو دقيق وصارم ومن ثم كان الغريب عندهم مفهوما اختباريا[82] مفتقرا إلى التأصيل النظري.

ولا يظهر الاضطراب في مستوى التصوّر فحسب بل يتعدّاه إلى الموقف المعياري من الظّاهرة. إذا لم تكن النظرة إلى الغريب متجانسة دوما بل اختلفت باختلاف العصور وتنوّعت بتنوّع مشارب من عني به من المصنّفين وضروب المعرفة التي يصنّفون فيها. فقد وجد عند القدامى الموقف الاستحسانيّ من الغريب. إذ جاء في دائرة المعارف الإسلامية : «(...) نصادف هذه اللّفظة [لفظة غريب] في كتب النقد الأدبيّ (حيث يمكن أن نعثر أيضا على المعنى العادي والمعنى التقريظيّ المقترن بالفرادة والطّرافة)[83] ويقوم هذا الموقف على اعتبار استعمال الغريب دليلا على التبحر في العلوم والتعمق في المعارف وهذا ما يعبر عنه صراحة رأي ابن رشيق الذي أورده السيوطي في المزهر : «قال [ابن رشيق] : وإذا كانت اللّفظة حسنة مستغربة لا يعلمها إلاّ العالم المبرّز والأعرابيّ القحّ فتلك وحشيّة»[84].

غير أنّه وجد موقف وسط يجيز استعمال الغريب مع تقييد ذلك ببعض الشروط. فضياء الدين بن الأثير (ت 635 هـ) «الذي يفيض القول في هذه المسألة يرى أنّه من الجائز استعمال عبارات متقعّرة شريطة ألا

---

(82) Empirique

(83) E.I. (2): II/1034.

(84) السّيوطي. المزهر ج 1، ص 233.

ينبو عنها السمع،[85] وقد تردد صدى هذه الموقف منذ عصر الجاحظ الذي يقول في البيان والتبيين، : «وكما لا ينبغي أن يكون اللّفظ عاميّا وساقطا سوقيّا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيّا إلاّ أن يكون المتكلّم بدويّا أعرابيّا فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النّاس،[86]. وفي كلام الجاحظ من الإشارات ما يجعل الغريب مرادفا للفصيح ذلك أنّه يجيزه للأعراب الذين يقر لهم بالفصاحة في قوله : «وأنا أقول : إنّه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذّ في الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماعه حديث الأعراب العقلاء الفصحاء،[87].

غير أنّ أكثر المواقف ذيوعا هو الموقف المستهجن لاستعمال الغريب إذ «ترمي بعض الرّوايات (...) إلى بيان أنّ بعض النّقاد في العصر الأموي وأول عهد العبّاسيين كانوا يستنكرون استعمال بعض الشعراء المعاصرين لهم من أضراب الطّرمّاح والكميت وابن مناذر لغة متقعّرة ويحتجّون لذلك بأن هذه المفردات المتقعّرة ليست من لسان الشعراء الأوّل في شيء وأن مأتاها إنما هو نزعتهم إلى ما هو عتيق. وقد رأى أغلب المتبحّرين من نقاد الأدب الرأي نفسه في ما يستعمله الشاعر من مفردات فهم لا يجيزون له إلاّ العبارات المستعملة في عصره كما أنهم يستنكرون استعمال الغريب في النّثر والخطب،[88] ويبلغ هذا الموقف ذروته في مقابلة الغريب بالفصيح فقد تحدث السيوطي عن الحوشي والغرائب والشواذّ والنّوادر

---

(85) E.I. (2); II / 1034.

(86) الجاحظ، البيان والتبيين. حققه وشرحه عبد السلام محمد هارون بيروت 1990 ـ دار الجيل ج 1، ص 144.

(87) المصدر نفسه ج 1، ص 145.

(88) E.I. (2); II / 1034

فاعتبر أنّ «هذه الألفاظ متقاربة وكلّها خلاف الفصيح»[89]. وقابل بين الغريب والفصيح مقابلة ضمنية فقال : «والغرانب جمع غريبة وهي بمعنى الحوشيّ والشوارد جمع شاردة وهي أيضا بمعناها وقد قابل صاحب القاموس بها الفصيح حيث قال : مشتملا على الفصح والشوارد»[90].

وقد وجد القدامى أيّما حرج في تطبيق هذا المبدإ البلاغيّ والنّقدي على النّصّ الدّيني ولا سيّما القرآني. فإذا كان الجمهورّ منهم يسلّم من جهة، بأن الغريب إذا وقع في نوع من أنواع المخاطبات انحطّ به عن درجة الفصاحة فإنّه قد أطبق من جهة أخرى على اعتبار القرآن سنام الإعجاز ورأس البلاغة وقمّة البراعة دون أن يدفع اشتماله على الغريب. وقد سكت أكثر المصنّفين عن الإشارة إلى هذا التعارض بين الغريب والفصيح في النّص الدّيني فلا نكاد نجد إشارة إليه إلاّ عند الرّاغب الأصفهاني الذي شعر بثقل ما استقر في التراث البلاغي والنقدي من مقابلة للغريب بالفصيح فسعى إلى الرّدّ الضمني على القول بالتعارض وذلك عندما قال في مقدّمة «المفردات» : ألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنّوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة والحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[91].

والمسكوت عنه في هذا الموقف أنّ المخاطبات لا تتفاضل فيما بينها بما أودع فيها من خصائص لغوية وإنما يكون تفاضلها حسب الجهة التي

---

(89) السيوطي، «المزهر»، ج 1، ص 233.

(90) المصدر نفسه ج1، ص 234.

(91) الرّاغب الأصفهاني، «المفردات في غريب القرآن»، ص 2.

تصدر عنها تلك المخاطبات. وعلى هذا يكون النّص الديني فصيحا وإن احتوى غريبا وتنحطّ درجة سائر المخاطبات في الفصاحة لاشتمالها على الغريب.

إنّ مفهوم الغريب عند القدامى لمن أشدّ المفاهيم اللّغويّة غموضا والتباسا ومن أكثرها افتقارا إلى الدقّة والتّماسك وأدعاها إلى إثارة الجدل والخلاف وقد يعزى هذا القصور في آلة القدامى عن بناء مفهوم الغريب بناء محكما إلى ما حداهم على الاهتمام بهذه الظّاهرة من بواعث. فلم تكن دوافعهم إلى تناول الظّاهرة دوافع معرفيّة خالصة وإنّما كانت دوافع عقدية في المقام الأوّل غايتها الحفاظ على اللّسان في آنيّة معلومة من آنياته وتأبيد نظام تلك الآنيّة التي تنتمي إليها جملة من النّصوص المقدّسة. ومعلوم أنّ من الأسباب الضامنة لبقاء نصّ من النّصوص أن تتعلّق به نصوص من درجة ثانية تفكّ ملغزه وتفسّر مشكله حتّى تمكن له بين النّصوص الخالدة. وبذا تنكشف لنا الصلة المتينة بين التصنيف في فنّ الغريب وحركة الشرح والتفسير التي قامت حول أجاود النّصوص.

شكري السعدي